

نكبة فلسطين في شعر المهجر

بقلم فريد جحا

— ١ —

نزلت (✱) بالامة العربية كوارث ونكبات كثيرة ، ولكن نكبة فلسطين **هي النكبة العظمى والكارثة الفادحة** . ولقد أتت فداحتها من امرين : أولهما ، ان قطرا يحتل منزلة القلب من جسم الوطن العربي قد سرقه شعب غريب مجرم . والثاني ، ان ابناء هذا القطر قد اكرهوا على التخلي عن ديارهم ومساكنهم ، وشردوا في الآفاق ليعيشوا حياة اللاجئين الشقية .

والحقيقة ان نكبة فلسطين ليست مأساة عربية فقط ، وانما هي مأساة انسانية ايضا ، اذ لم نعرف في تاريخ البشرية ان وطنا سرق على هذا الشكل ، وان شعبا قد أهين وشرد على هذا المنوال . أننا مع الشاعر القروي في قوله : « ان نكبة فلسطين لا يماثلها نكبة ما لا في الارض ولا في السماء ، وكل خطب مهما فدح يهون بالنسبة اليها . وكل انسان عربيا كان ام غربيا لا يحزن لها ولا يغضب ولا يثور ، فقد تجرد من كل شعور ، وكل أنسانية ، وكل دين » . (١)

تركت هذه النكبة اثرا عميقا في تاريخ العرب الحديث ، انها هزت أعماق النفس العربية هزا عميقا ، ونبهتها الى امور كثيرة أخطرها : ان الحق للاقوياء العلماء ، وان لا مكان تحت الشمس للجهلة الضعفاء ، وان على العرب لكي يستردوا الوطن السليب ان يعتمدوا على انفسهم .

وكان لا بد بعد هذا ان تترك النكبة اثرها في الشعر العربي . وقد لخصت هذه الاثار في الامور التالية : « انها قدمت للشعر زادا لا ينفد ، وانها أغنت العنصر العاطفي في الشعر ، ونفخت روح التمرد والانطلاق والثورة ، ودفعت الشعراء المعاصرين الى التطور والتجديد ، وغلبت على الشعر المعاصر الاتجاه الالزامي الهادف » . (٢)

— ٢ —

وما دامت النكبة عربية وانسانية ، فان من الطبيعي ان **تترك أصداء كثيرة لدى عرب المهجر** الذين نعرف حبهم لوطنهم واهتمامهم بقضاياه . انها هزت قلوب المهاجرين حتى الاعماق ، ودفعت الشعراء والادباء الى ان يبكوها ويحملوا على مسببيها .

ولقد حدثنا الاستاذ اكرم زعيتر في كتابه « مهمة في قارة » بالتفصيل عن الحفاوة التي لقيها الوفد العربي الذي سافر الى اميركا اللاتينيه عام ١٩٤٨ لشرح قضيه فلسطين . كان الوفد يستقبل من قبل الجاليات استقبالات تليق بالملوك وكان موضع الترحاب في كل مكان ينزل به ، كما قدم المهاجرون كل مساعدة له لينجح في مهمته .

وليست هذه هي المرة الاولى التي يهتم فيها المغتربون بقضية فلسطين ، فلطالما اقاموا الحفلات الخطابية من اجلها ، وبخاصة في عام ١٩٣٨ ، ذلك العام الذي شهد انتصارات الثورة العربية الفلسطينية ، تلك الانتصارات التي أضطرت الحكومة البريطانية الى عقد مؤتمر المائدة المستديرة في لندن ، والى اصدار « الكتاب الابيض » الذي كان فيه شيء من التراجع عن السياسة الممالئة للصهيونية .

ولا ننس المناظرة التي أجراها امين الريحاني في « سان فرانسيسكو » مع حاخام يهودي وحاكم بريطاني سابق في فلسطين ، حيث استطاع الريحاني ببديهته وذكائه وموهبته الخطابية أن ينتزع النصر من خصميه حين أبطل مكيدتهما بتقديمه للكلام قائلا : « أعطيت حق الكلام اولا على اعتبار ان الحق الاول في فلسطين هو لامتي العربيه . وعليه فأنا أشكر لزميلي هذا الاعتراف الصريح منهما » . (٣)

وقد ذكر الاستاذ زعيتر ان لجنة للدفاع عن فلسطين تألفت من الجاليتين اللبنانية والسورية في « سان باولو » بعد قطيعة استمرت سبعة عشر عاما ، فلقد جمعت النكبة القلوب المختلفة التي وحد بينها الهدف المشترك .

— ٣ —

ولا شك ان **الشعراء** على اختلاف اتجاهاتهم السياسية **كانوا يهتمون بهذه القضية** . كان الاستاذ زعيتر يثني في كل مدينة يزورها على الادباء وما يقدمون للوفد من مساعدات معنوية لا تقدر بثمن . لقد ذكر بالخير كل الخير « القروي وفرحات وسمعان وغراب وصيدح وقنصل وقربان والمعلوف » كما اطلق هو نفسه على القروي اللقب المشهور « قديس القومية العربية » .

كانت لا تمر مناسبة الا وينتهزها الشعراء للتعرض لقضية فلسطين . كانت الاعياد مثلا تنقلب الى مآتم ، كيف يحتفل القروي بعيد المولد النبوي وفلسطين نازل بها الشر ؟

يهنىء بعضكم بعضا واني ... أهني النفس اني لا أهني
أأنقض مبدئي وأخون عهدي ... مسايرة لكم ويقال : اني ...

(✱) الفصل الخامس من كتاب قيد الطبع بعنوان « العروبة في شعر المهجر » .

(١) الديوان — ص ٧٠٣ — الطبعة الجديدة .

(٢) مأساة فلسطين واثرها في الشعر المعاصر — محاضرة للدكتور صالح الاشتر — دمشق ١٩٦١

(٣) ادبنا وادباؤنا ص ٢٢٤

ويهدي الياس قنصل رباعياته التي نظمها في الارجنتين وطبعها في دمشق عام ١٩٥٦ « الى الجنود العرب الذين سيدخلون تل ابيب ليدكوا دولة العصابات على رؤوس بناتها ، رمزا لايمانه بأن النصر القريب ، لنا، للحق ، للعروبة الخالدة » .

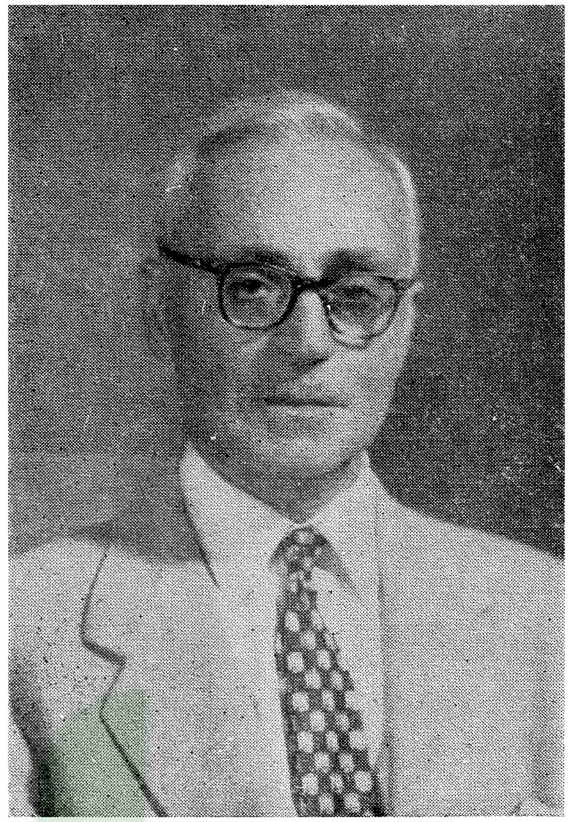
« ويتطوع الشاعر القروي للطواف على المواطنين المتفرقين في المدن والقرى لجمع التبرعات منهم لاغاثة فلسطين بها ، وكان يبيع في جولته جوارب اؤتمن عليها من احد تجار سان باولو لكي ينفق على نفسه من ارباحها، لا من مال التبرعات » . (٤)

وفي ابيات له مؤثرة يصف ما لاقاه من تعنت المواطنين وشحهم ، ومنهم :

أفضـول ما أرى ام غيرة ... أوقرت ظهري وهدت منكبيا
أنحلت علة غيري جسدي ... وأسالت كبدي من مقلتيا
يا بني امي هل كلفتكم ... حمل عبء لم يهشم ساعديا
طالما سابق عسري يسركم ... حين لا املك الا اصفريا
ان وهبتم فضل مال فأنا ... نازف ما في عروقي ويديا
ولكم باذل فلس يدعي ... انه لولاي لا يبذل شيئا
أنا راض حاسب كل يد ... تنفع الامه مهداة اليا
سايروني واخدموا اوطانكم ... واحسبوا المنة يا قومي عليا

وفي الوقت نفسه كان الشاعر صيدح يطوف في مدن الارجنتين ونواحيها وفي يده ديوانه « النوافل » الذي طبعه ورصد ريعه للمنكوبين :

يا أهل ودي لا أكلفكم ... ترفيه همي انه عرم
بسرابكم لا ترتوي كبد ... لم تردها الغدران والديم
لا تحسبوا عتبي لموجدة ... الله ما بيني وبينكم
احببتكم وبلوت نجدتكم ... فاذا الذي استنجدته صنم
حققت ان دموعكم كرم ... في الوعد لا في غيره كرم
فرغت يدي منكم وما فرغت ... أذني كان لبانتي نغم
لم يبق فيكم من عروبتكم ... الا لسان مفصح وفم
ان العروبة يا بلابلها ... روح على كف الفتى وفم



الشاعر القروي

أرى تفاح هذا العيد جمرا ... ولو قطفوه من جنات عدن
وألمس ناعم الازهار شوكا ... وأنشق عطرها نتنا بنتن
ويطرف ناظري حسن الغواني ... ويجرح مسمعي شدو المغني
أأرضى والرسول قتيل غيظ ... وأفرح والمسيح شهيد حزن ؟!

وعندما يقف « الغراب الغازي » على نافذة الشاعر صيدح في « بحمدون » يخيل اليه انه آت من اسرائيل ليسرق داره كما سرق اليهود فلسطين :

تطيرت من ناعب في الصباح ... دخيل على مهرجان السنا
مغير يمزق شمل الرياح ... اذا دافعته عن المجتنى
تقزز منه عيون الاقاح ... وتطبق اجفانها ان دنا
تسرب في غرفتي واستراح ... فسرب منه الي العنا
أتأبى جدار الغراب الوقاح ... عجاف الطيور وارضى أنا
ومن أنبا الطير ان اجتياح ... مقامي أيسر ما في الدنى
وان انتسابي الى يعرب
يحلل مأواي للاجنبي

— ٤ —

وكم صور الشعراء في المهاجر آلامهم لهذه القضية التي نزلت بأمتهم . ان نسيب عريضة في عام ١٩٣٨ ، وقبل النكبة بعشر سنوات ، يقدم لنا حاله في الهجر : صدر يعلو ويهبط ، ودم يراق تحيات ، ونوم لا يطيع ، وتوق الى ساحة المجد ، ولكن الساحة بعيدة ، لذلك يمسي على ثورة ، ويصبح على دمعة :

(٤) المصدر السابق — ص ١٣٧

فلسطين من غربة موثقة   نراعيك في الكربة المطبقه
فتعلو وتهبط منا الصدور   وتهفو وأبصارنا مطرقه
ومن خلف هذا الخضم البعيد   نحييك بالدمعة المحرقه
فلسطين كم أرق بيننا   وبعض البلية ما أرقه
الى ساحة المجد فيك يتوق   ولكن حبل النوى أوثقه
فيمسي على ثورة في الحشا   ويصبح والعين مغرورقه

ويتمنى زكي قنصل لو أن السبيل ممهد الى مهد السلام . ولكن كيف يتم ذلك والليل داج والطريق طويل طويل ؟ ان اشواقه عاتية عاتية ، وقلبه يقطر دمعا ودما ، ويكاد الظلام يطوي سفينته لولا بصيص من رجاء :

هل لي الى مهد السلام سبيل؟   الليل داج والطريق طويل
عصفت بي الاشواق عاتية اللظى   واحر قلب بالدموع يسيل
لتكاد تغرق في الظلام سفينتي   لولا بصيص للرجاء ضئيل
هيهات يحملني جناح خافق   وأخوه في أصفاده مشلول

كذلك يشق على أبي ماضي أن تحزن ارض السلام، لذلك يسهر كأن السيف تقطع كبده ، وكيف ينام وخطب فلسطين خطب العلا ، وما هو بهين :

ديار السلام وأرض الهنا   يشق على الكل ان تحزنا
فخطب فلسطين خطب العلا   وما كان رزء العلا هينا
سهرنا له فكأن السيو   ف تحز بأكبادنا ههنا
وكيف يزور الكرى أعينا   ترى حولها للردى أعينا

ولا يجد القروي دمعة يذرفها على امه التي يعبدها، فبكاؤه على المليون من اللاجئين قد أنضب دمعه :

أبعد فلسطين يناح على فتى   وهل بقيت من مقلة دمعة بعد
وما الحقد من طبعي ولكن اذا بغى   على وطني الباغون فجرني الحقد

وتشرق مقلة الشاعر صيدح بالدموع الكثيرة ، فيا أيها اللائم لا تلمه ، أما هدر دم الامة ؟ أما استشهد الحق ؟

شرقت بمائك يا مقلتي   ألا ليت ماءك في مهجتي
فيا لائمي ان هدرت الدمو   ع أما هدرت دمها امتي ؟
أما استشهد الحق حيث الرجال   بكوا كالنساء على الميت ؟

والحسن حوله في الدنيا ، وهو متجهم متألم يرحل هنا وهناك : زاده الالم وصاحبه الجزع على الاوطان ، وعلى لسانه سؤال رهيب : هل انطوى علم العروبة في فلسطين :

ما لي اطوف وقبلتي حلم   خاب المسافر زاده الالم
الحسن يضحك في الربى وأنا   متجهم وسواي يبتسم
جزعي على الاوطان يصحبني   هل في فلسطين انطوى العلم ؟

بل ان بعض الشعراء قد بلغ بهم اليأس والالم حد الكفر بحكمة الله ، والا ما سر هذا الشر الكبير ينزل بالقدس . ان صرعة الحق قد زعزعت ايمان الشاعر القروي بالحق والباطل :

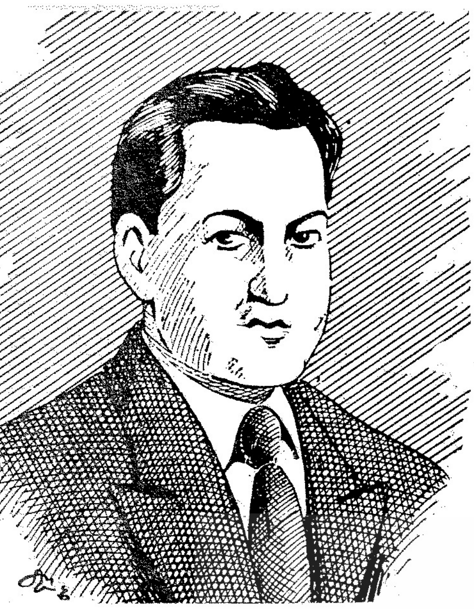
واحيرة العاقل في خالق   قضى وأمضى بشقا العاقل
يفعل ما لو غيره فاعل   لقامت الدنيا على الفاعل
القدس لم تزن فما بالها   ترجم عن بابل من بابل
كم صرعة للحق قد زعزعت   رأيي في الحق ، وفي الباطل

— ٥ —

واذا أردت معرفة **أسباب النكبة** ، وجدت الجواب على ذلك لدى شعراء المهجر . ففي رأي الياس قنصل ان الذل في الأخلاق هو سبب ضياع القدس :

انا خسرنا القدس وهي وديعة   في عهدنا من سؤدد الخلاق
ما كان من وهن السلاح ضياعها   بل من شيوع الذل في الاخلاق

وجميع العرب مسؤولون عن ذلك ، مسؤولون لانهم خنعوا وسكتوا ، ولان ذنب المظلوم حين يقبل الظلم كذنب



نسيب عريضه

الظالم

ذنب الطغاة كذنب الخانعين لهم   سيان في الجرم ظلام ومذلول
سيذكر العار ان العرب دمرهم   يوم الكريهة مجهول ومرذول
وليس يبرأ من اثم الونى احد   فكلنا عن ضياع القدس مسؤول

والفرقة والانقسام — في رأي الشاعر صيدح — هما سبب النكبة :

يمينا لم ينل منا مراما   عدو لم نسقه الى المرام
ولا اغتصب الحمى لو لم نمهد   طريق الغاصبين بالانقسام

ونحن الذين صنعنا أقدارنا بأيدينا فلا نلقينها على غيرنا :

أقدارنا صنع ايدينا فما جرحت   الا بسهم وضعناه بأيديها

اما القروي فيعلل سبب العون الكبير الذي تقدمه أميركا لليهود في رسالة ارسلها الى صديقه صيدح من الولايات المتحدة بقوله : « التوراة في كل بيت ، عند كل سرير ، ولا تكاد تخلو منها غرفة في فندق . وقد هالني ما رأيت من سلطانها على العقول التي أوشكت ان تفقد مرونتها وتعدم تفكيرها . والتوراة أقوى وأفتك سلاح يتذرع به اليهود للفوز بمآربهم ، وأول مآربهم فلسطين »

ويرى الشاعر فرحات أن سبب ضياع فلسطين ولواء الاسكندرون هو فقدان العزة والحياء من وجوه الزعماء الذين نضب شعورهم فأصبحوا أذلاء ، وخاب أمل عقدناه على ابائهم :

هذي وذاك لنا ولم نخسرهما   لو ان في بعض الوجوه حياء
نضبت فانضبت الشعور وكذبت   شمما تبجحنا به وإباء

— ٦ —

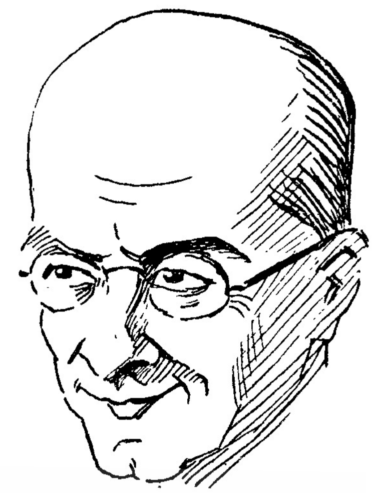
ولقد كانت **خيانة الملوك والرؤساء** آنذاك وتخاذلهم وانقسامهم ومطامعهم أهم أسباب النكبة . لذلك شن شعراء المهجر عليهم حملات شعواء تتناسب والجرم الذي أقدموا عليه .

فالياس قنصل يظنهم اسودا لكثرة ما ألقوا من خطب: ولكنهم يوم الغضبة للوطن تحولوا — يا للعار — الى ديوك

حسبناهم اذا غضبوا اسودا   فكانوا يوم غضبتهم ديوكا
ولو كان الكلام يشيد عرشا   لكان العرب اغلبهم ملوكا

وكان فرحات يظن صاحب التاج صقرا فلما غزيت الديار المقدسة ، انقلب الملك المتوج الى هدهد حقير :

ملوك ظنناهم اسودا وعندما   غزينا رأينا صاحب التاج هدهدا



ايليا ابو ماضي

ولذلك يري الشباب – عندما يخاطبهم – كيف تخاذل الملوك والامراء ، وكيف ذلوا ليحموا ألقابهم . ولمن؟ للصهاينة ، أذل من وطيء الثرى . كلامهم امام قومهم زئير ، وأمام العدى مواء ، وسيدك الشعب عروشهم :

أرأيتم الزعماء كيف تخاذلوا ... أرأيتم الاقيال والامراء
ذل الجميع على حمى ألقابهم ... لأذل من وطىء الثرى استخذاء
يتزاءرون كأنهم أسد فان ... لمحوا العدى انقلب الزئير مواء
لو شاء هذا الشعبدك عروشهم ... وأزال كل متوج لو شاء

وقبل هذا يهزأ بألقابهم الضخمة وكرامتهم الهزيلة التي ديست بأقدام اليهود :

وإذا لقيت ذوي الجلالة من ... ساداتنا المتحكمين بنا
وذوي السمو وكل ذي لقب ... خاو كصاحبه قليل غنى
فاهزأ بألقاب لهم سمنت ... وكرامة هزلت أسى وضنى
ديست بأقدام اليهود فيا ... شم الانوف استنشقوا الدرنا

ويصورهم الشاعر صيدح كما كانوا أثناء القتال بصورتهم البشعة وخصامهم الكريه وأطماعهم التي تقدمت جيوشهم :

أما اختصموا في الحمى المستباح ... خصام الصقور على الجثة
فهذا سريع الى السائبات ... وكان بطيئا الى النجدة
وهذا مليك قريع الحروب ... يؤوب من النصر بالهدنة
أعدوا فيالق أطماعهم ... على رأس جيش بلا عدة

لذلك يدعو في قصيدة اخرى الى الثورة عليهم ما داموا قد اصبحوا رمما ، والشعوب يقودها الاقوياء الاحياء ، لا الاموات الاذلاء :

دنيا العروبة أدبرت ومشت ... مقلوبة من رأسها القدم
العابثون بحقنا اتحدوا ... والقائمون بأمرنا انقسموا
حتى من هذا الخنوع لهم ... يا امة دانت لها الامم
ثوري عليهم انهم رمم ... بئس الشعوب تقودها رمم

ولا ينسى الشعراء **ملوك الزيت وامراءه** الذين بخلوا حتى بالتهديد بقطع الزيت عن دول المستعمرين مكتفين باطلاق التصاريح الجوفاء ، كقول عبد العزيز آل سعود عام ١٩٤٧ : « ان فلسطين عزيزة عليه ، وانها بؤبؤعينيه ، وانه لا يرضى لها الا ما يرضاه لنفسه » . اما عند الشدائد فلا شيء الا الوفاء بالالتزامات تجاه من اسعفوا اسرائيل وسندوها . ونسوا ان « زيت الحجاز والعراق والكويت ليس لاهل الحجاز ، ولا لاهل العراق ، ولا لاهل الكويت ، انما هو ملك لله ، لانهم لم يزرعوه حتى يستغلوه ، ولا صنعوه حتى يتاجروا به ، **فيجب ان يدفعوا ضريبة ثقيلة لله عليه » (٥) .**

فذلك الامير الذي طفا نجمه على الزيت لا يسقي العرب الا السراب . يقول فرحات :

وصاحبنا الطافي على الزيت نجمه ... سقانا زلال الآل في غمرة الصدى

وهؤلاء الاغنياء العرب ، ماذا تفيد ثروتهم اذا ابعد عنهم مجد امتهم ، بل ما أفقر الانسان مهما بلغماله حين يفقد وطنه .

ونمضي مع الياس فرحات في هذه الابيات من قصيدته التي يصفع فيها الامراء اصحاب الملايين ، حين يتمنى – وهو الفقير – لو ملك نفط الكويت ليحيله جنودا يمشون فوق جثث اليهود لتحرير الديار المقدسة :

ماذا يفيد العرب ثروة بعضهم ... ان كان حائط بعضهم مسدودا
ما أفقر المتمولين اذا همو ... كسبوا بخسران البلاد نقودا
لو كان لي نفط الكويت جعلته ... يمشي على جثث اليهود جنودا

– ٧ –

ولم يسلم الشعب العربي بعد الملوك والزعماء من لوم الشعراء وحملتهم ، بل ان بعضهم عده مسؤولا ايضا. ان الطغاة – كما يقول الياس قنصل – جنوا علينا فما ثارت حماستنا فذنبنا كذنبهم :

جنوا علينا فما ثارت حماستنا ... غيظا ولا خف تحت السوط تهليل
ذنب الطغاة كذنب الخانعين لهم ... سيان في الجرم ظلام ومذلول

وفي عيد المولد النبوي يأبى القروي ان يشارك في العيد ، ويخيل اليه انه يسمع وعيده وتقريعه ، وهو تقريع قاس قاس يستحقه الشعب الذي يبيع ارضه لليهود ، ثم يحتفل بعيده :

وعيد هائل سمعته روحي ... ولولا لفظكم سمعته اذني
يفجره النبي شواظ نار ... على شط وبادية وحزن :
أمسخرة الشعوب لعنت شعبا ... ذليلا لست منك ولست مني
تعيد لي وأنت تبيع ارضي ... وعرضي لليهود ، « اليك عني »

ويتألم الشاعر صيدح للوعود تبذل في المهجر كلاما وأرقاما على الورق . وفي الوطن الكلام كثير ، والناس يفتخرون بأجدادهم الجبابرة وهم الاقزام . ما أشبههم بالظلال تفخر بأطوادها . اما فلسطين فهي تجد كل شيء الا السلاح والزاد :

وفي مهاجرنا الاصوات عالية ... والجود يضرب أصفارا بآحاد
مرحى فلسطين مهما تطلبي تجدي ... الا السلاح والا بلغة الزاد
ما في الشام ولا لبنان ألسنة ... الا وذكرك فيها رائح غاد
فخر السوخ بأجداد جبابرة ... فخر الظلال استكانت تحت أطواد

ويسأل الشاعر الصارمي في حفلة استقبال السفير الشاعر « أبو ريشة » في الارجنتين عن اخبار الوطن ، وعن ابناء الراية الواحدة متى تظلل اقطاره . ثم ينثني – والالم يعصر فؤاده – ليسأل عن فلسطين متى يعود اليها المجد ، وهل يظل اليهود فيها عبئا ثقيلا ؟ ويعجب كيف استكان العرب للهوان وهم ابناء قحطان وكيف أطمأنوا لحياتهم ، والعز طعين مقتول ، ومئات الالوف من اللاجئين مشردون :

أتضم البلاد رايتها الكبرى ... وشيكا ام ذاك امر يطول
أيؤول المجد المضيع في القدس ، ام المجد غاله الدهر غول
أيظل اليهود عبئا ثقيلا ... أم لها يومها الامر الوبيل
كيف قرت على الهوان وما أبناء قحطان للهوان سليل
واطمأنت الى المناصب والعز طعين بصدره وقتيل
ومئات الالوف من أسر الشعب جياع مشردون فلول (٦)

فريد جحا

(٥) الكلمة للاستاذ نيقولا الحداد (٦) للبحث تتمة في العدد القادم